ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:10، العدد: 02(2025) ص: 84 - 93

بناء الفرد وإصلاح المجتمع في شعر شيوخ الزوايا من خلال نماذج مختلفة زمانا ومكانا وطريقة

The Individualformation and social reform in the poetry of Zawiya Sheikhsthroughdiverse modelsacrosstime, place, and approach

البشير عزوزي*

جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج (الجزائر)

elbachir.azzouzi@univ-bba.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/08/04
تاريخ القبول:
2025/10/29
تاريخ النشر:
2025/12/21

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **الشعر:**
- ✓ **التصوف:**
- ✓ **التربية:**
- ✓ **العرفان**
- ✓ **القصيدة النورانيّة**

الملخص:

تميّز كثير من علمـــاء الزوايا وشيوخها بالنظم العجيب والشعر الرصين، هذا الشعر الذي ضمّنوه خلاصة تجاربهم وبدائع حكمهم وأنورا فتوحاتهم، وحجة ردودهم.

من هنا أردنا أن نستكنه مخبآت هذه النصـوص، ونبيّن ما فيها من بعد تربـويّ وروحيّ، بوصفها وسيلة مهمّة من وسائل التربيّة في هذا الطريق الشريف. ولا يتمّ الوصول إلى وصف شامل ونتائج دقيقة إلى بتنويع النماذج **زمانا:** في القديم والحديث، **مكاناً:** عبر ربوع هذا الوطن العزيز، **طريقاً:** بمختلف الطرق ومشاربها وسلوكها. لننتهي في الأخير إلى أنّ القصيدة النورانية (قصائد الأولياء) قد نجحت في بنا الإنسان وإصلاح المجتمع لاحتوائها على معرفة دقيقة بالنفس البشريّة وعللها وأسرار دوائها.

Article info

Received
04/08/2025
Accepted
29/10/2025
Published
21/12/2025

Keywords:
- ✓ *the poetry:*
- ✓ *Sufism:*
- ✓ *Education*
- ✓ *Cognition*
- ✓ *The light poem*

Abstract :

Many scholars and sheikhs of the zawiyah distinguishedthemselves but also by theirremarkablepoetic expression and eloquent verse. In theirpoetry, theyembedded the essence of theirexperiences, the brilliance of theirwisdom, the lights of their spiritual unveilings,and the strength of their arguments.

Fromthis perspective, wesought to uncover the hiddentreasures of thesetexts and to highlight theireducational and spiritual dimensions, consideringthem an important means of instruction alongthis noble path. A comprehensive description and accurate conclusions can onlybereached by diversifying the poeticsamples in terms of time:bothancient and modern;place:across the variousregions of thisbelovedhomeland; and spiritual path:representing the diversity of approaches, traditions, and practices. In the end, wefindthat the luminouspoem—the poems of the saints—has indeedsucceeded in shapingindividuals and reforming society, as itcontains a profoundknowledge of the human soul, itsailments, and the secrets of itshealing.

* أستاذ بقسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج، الجزائر.

1. مقدمة

إنّ الأدب الصّوفيّ حلقة من أهمّ حلقات الأدب العربيّ على اختلاف مراحله وتباين عصوره، والدّليل على ذلك تلك النّصوص التي واكبت تاريخ الأمّة بحلوه ومرّه معلنة أنّ الأدب العربيّ جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر، فلم يخل قطر عربيّ من أدب صوفي يعدّ من أهمّ الآداب العالميّة لما يحمله من مشاعر إنسانيّة وما يطويه من خصائص فنّيّة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كثيراً من شعراء الصّوفيّة كانوا على اطّلاع واسع بالعلوم في وقت كثرت فيه الآفات وانتشرت بواعث الغفلات ، كما شرت الفرقة في جسد الأمّة في مشارق الأرض ومغاربها، ممّا فرض على القصيدة الصّوفيّة أن تكون مربيّة مدافعة؛ فهي لسان حال القوم تدافع عن أصولهم وتنافح عن مبادئهم، كما أنّها مدوّنة للأخلاق الفاضلة والخصال الشريفة، وخير دليل على ذلك النماذج التي اخترناها وفق رؤية معيّنة؛ (**ما لذة العيش** لأبي مدين التلمساني (الطريقة الشاذليّة)، **الياقوتة** لسيدي عبد القادر بن محمّد المشهور بسيدي الشيخ (الطريقة الشيخيّة)، **أيا أيّها العشاق للمحضر الأعلى** لسيدي أحمد العلاوي المستغانمي (الطريقة العلاويّة)، وهي كلّها مثقلة بالنصائح الظاهرة أو المضمرة، والتي تهدف إلى بناء إنسان قويمٍ، حسن العلاقة مع الخلق والخالق، قويّ الروح سليم التفكير، له أثره في أرضه ووجوده.

إنّ المتتبّع لهذا النّوع من القصائد يجد فيه تشابهاً كبيراً من حيث البناء والموضوعات، وقد اخترنا نماذج متباعدة زمنيّاً ومختلفة من حيث الطّريقة لنثبت أنّ القصيدة الصّوفيّة التي انبثقت من مشكاة الفتح ومن سر المجاهدات، في معظمها تتخذ منهجاً واحدا وتحوي عناصر معيّنة.

فما مميزات القصيدة **النورانيّة**؟(سنصطلح على قصائد الأولياء وشيوخ الزوايا بالقصيدة النورانية، لما فيها من تجليات ربّانية ومعارف لدنيّة وأسرار كونيّة).

ما هي مرتكزاتها في بناء الفرد وإصلاح المجتمع؟

1/ النصّ الصوفيّ وكونيّة المعنى:

إنّ النصّ الصوفيّ بوصفه حلقة مهمّة من حلقات الأدب العربي وركيزة مهمّة من ركائزه، يتميّز عن باقي النصوص بميزات كثيرة ويتفرّد بخصائص متعدّدة، وهذا في سائر أجناسه: شعر، حكم (مثل الحكم العطائيّة)، مواعظ، خطاب الكرامة، الكتابة العلميّة (أبو حامد الغزالي، القشيري، الشاذلي، ...، ومن أهمّ هذه الميزات: لغته الخاصّة ومعجمه الفريد، وكذلك بعده الإصلاحيّ الكونيّ الذي يتعدّى العلاقات الإنسانيّة البسيطة إلى العلاقات الكونيّة تسليماً بأنّ للإنسان شركاء في الكون شهوداً وغيباً، فالنصّ الصوفيّ يتخطّى جميع الحواجز الظاهرة والخفيّة ويربط العلاقة بالكون الرحيب وما فيه من سرّ عجيب.

على هذا الأساس فأهمّ خصائص النصّ الصوفي «**العرفانيّة التي هي منطلقه ومنتهاه، والتي هي امتداداته الحقيقيّة في أرضياته التجريديّة وفي مظاهره الفيزيائيّة**» (بن عبيد، 2011: 186) هذه المعرفة الاستثنائيّة التي تفرّد بها أرباب التصوّف وتشرّف بها أصحاب التعرّف، مصدرها الوحيّ المقدّس ووسيلتها الفتح الناتج عن سنوات من المجاهدات العلميّة والسلوكيّة والخلوات وجلسات التفكر والتدبّر والمكاشفات والأحوال الطارئة الجاذبة. ثمّ تترجم تلك المعارف في نصوص بديعة وتكتب بلغة عالية رفيعة، فكيف لا يكون هذا النصّ نصّاً إصلاحياً كونياً؟

وإذا عرفنا سببَ التميّز وسرَّ الكونيّة فإنّ خطر «**إخراج الخطاب الصوفيّ من هذا السياق بما يشين طبيعته قد يطوّعه لمن يعبث به**» (بن عبيد، 2011: 190)، فينبغي إعداد العدّة المعرفيّة والروحيّة للإقبال على هذه النصوص ومن ثمّ تفجير المعارف والأسرار المكنونة فيها، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ التعامل مع نصوص أهل التصوّف الذين تواترت كراماتهم ونقلت أحوالهم ورويت عجائبهم وانتشرت فتوحاتهم لمغامرة حقيقيّة وجرأة تأويليّة تستوجب معرفة أحوال القوم وسيرهم ومقاماتهم وفوق هذا خوارقهم التي قد تكون تلك الخطابات واحدة منها، ولنا في قصيدة (الياقوتة) التي نظمها سيدي عبد القادر بن محمّد خلال جذبة ربانيّة وحال كشفيّة مع أنّه ليس من أهل النحو ولا العروض ـ كما صرح بذلك في نهايتها ـ

إنّنا في هذا المقام بعيدون عن دراسة الشعر الصوفيّ الفنّي الذي اتّخذ الرؤية الصوفيّة والمعنى الصوفيّ والعبارة الصوفيّة والرمز الصوفيّ أدوات فنيّة لتقوية النصّ وجعله يكتنز المعنى أمام كثرة التأويلات ويصمد أزمانا طويلة أمام كثرة القراءات، أو يتّخذها ظواهر إبداعيّة تضفي تلك المسحة الجمالية الخلابة على القصيدة. ولا يخفى ما للمعجم الصوفيّ من سحر جمالي لا يضاهى.

وإنّما نقصد تلك القصائد التي خرجت من قلوب الأولياء وجرت على ألسنة الأصفياء، فتلقاها الصالحون والسالكون بالقبول في كلّ زمان ومكان حفظاً وشرحاً، وتواصوا بها وحضّوا عليها، بل كثير من الصالحين جعلوها في أورادهم، وتغنّوا بها في مجالسهم وحضراتهم المباركة لما فيها من الخير والنور والهدى والتربية وصلاح الدارين، فيصدق عليها حينئذ وصف **القصيدة النورانية**، منبثقة من النور موصلة عليه موصلة إليه.

1/ لزوم الأدب وثني الركب من خلال قصيدة (ما لذة العيش):

نبتدئ تقصّي المعاني التربويّة والروحية من كلام القوم بقصيدة أبي مدين المباركة (**ما لذّة العيش إلّا صحبة الفقرا**)التي سار بذكرها الركبان وغنّاها الزمان وحفظها الشيب والشباب والولدان، هذه القصيدة التي رسمت معالم الخُلق البديع والأدب الرفيع مع الله ورسوله ومع أولياء الله تعالى وكذا حدود التعامل مع الزملاء والأقران، لما رآه في زمانه من حياد عن طريق التصوّف السليم والخلق القويم والسلوك المستقيم، ولعلّ بيته الذي يقول فيه:

واعلم بأنّ طريق القومِ دارِسَةٌ وحالُ من يدّعيها اليوم كيفَ ترى

إعلان صارخ للحال التي آل إليها الطريق في عصره، فكيف بعصرنا، ولا يخفى من كان محيطاً بأبي مدين رضي الله عنه معاصرا أو مصاحباً له من علماء عاملين ومرابطين صابرين وسالكين في المجاهدات متنافسين، وعلى الرغم من هذا فقد رأى أنه من الواجب بيان معالم الطريق وآداب السلوك، وفي القصيدة من المعاني الروحيّة والأنوار الربانية مالا يخفى على ذي بصر ونور، وقد تولى شرحها ما لا يحصى من العلماء الربانيّن والأولياء الناصحين. مثل العارف بالله الوليّ الصادق الناصح أحمد بن عطاء الله السكندري، بشرح مبارك سماه (**عنوان التوفيق في آداب أهل الطريق**) وممّن شرحها كذلك العالم العلامة أحمد بن علان مع القصيدة الهائية التي مطلعها (من ذاق طعم شراب القوم يدريه) **للعالم العامل الوليّ ابن بنت الميلق الشافعيّ** في كتاب واحد، وهو شرح قريب من شرح ابن عطاء الله السكندري ويبدو متأثّراً به مقتبسا منه.

ومن أهمّ ما أقرّه سيدي أبو مدين رضي الله عنه في القصيدة التي هي قبس من نوره الظاهر وومضة من كونه العرفـــانيّ الباهر، والذي ســـــــرى في أرواح من تبعه وكبّل قلوب من تلاه:

1-1/ لذّة الطريق في صحبة أهل التحقيق: إنّ طريق الخلاص وسر تحصيل الإخلاص وسبيل النجاة ورفع الدرجات صحبةُ الفاضلين وملازمة الصالحين، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرا هداه إلى وليّ يذكّره الله ويعرفّه به ويأخذ بيده إليه، فمن آواه وليّ محقّق وعارف مصدّق طاب عيشه واستقام حاله وأمِن في روحه وعقله.

ما لذّةُ العيشِ إلّاَ صحبة الفقرا همُ السلاطين والساداتُ والأُمَرَا

«**والفقير هو المتجرّد عن الخلائق، المعرض عن العوائق، لم يبق له قِبلة ولا مقصد إلّا الله تعالى**» (ابن عطاء الله السكندري، 2012: 3) وهذا المقام الذي وصف به أهل الطريق وهو مقام الفقر من أعلى المقامات ومن أكمل الكمالات، ففي ترك الخلائق وقطع العلائق والتخلّي عن العوائق كمال العزّ وتمام التجرّد لله تعالى وتهيء القلب لمواهبه وفتوحاته وأنواره، ليكون دليلا لعباد الله إلى الله.

فأوّل منازل التربية الروحيّة التخلّصُ من الكسالى والبطالين والهروبُ من صحبة الغافلين اللاهين ((**لا تصحب من لا يُنهضك حالُه ولا يدلّك على الله مقالُه**)) لأنّ الصحبة أصل عظيم من أصول القوم (فاضل/ الرندي، 2023: ج1، 329) وبالصحبة يتقوّى الجانب ويشتدّ الساعد، ولا يكون الهروب من صحبة الغافلين إلى الفلاة ولا إلى الخلوات، وإنّما يكون إلى من ينهضك حاله الصالح ظاهراً وباطناً ترى فيه الله ورسوله، إلى من عرف الله فيعرّفك به وإلى من فنى في رسول الله صلى الله عليه وسلّم فينفخ فيك من أحواله ويشملك برداء محمّديّته.

2-1/ اتهام النفس ووجوب إلجامها:

إذا تحقّق الهروب من أبناء الدنيا وأهل الغفلات، وعثر المريد على من بِهم تُقال العثرات وتُصلح الأحوال فإنّ عليه لزومهم بما يناسب رفيع مقامهم وقداسة أسرارهم وهيبة أحوالهم، فبقدر الخير العظيم والنور المبين الذي يُنال على أيديهم يكون كذلك الخطأ جسيما في حضرتهم والزلل مُهلكاً في مجالسهم:

فاصحبهمُ وتـــأدّب في مجالسهم وخلِّ حظّك مهما قدّمـــــــوك وَرَا
ولازِمِ الصمـــت إلّا إن سئلت فقل لا علمَ عندي وكـــن بالجهـــل مستترا
ولا تـرى العيب إلّا فيك معتقـدا عيباً بـــــدا بيّناً لـــكنه استـــــترا
وحـــطَّ رأسَكَ واستغفر بلا سبب وقف على قـــدم الإنصاف معـــتذرا
وبالتغنّي عن الإخوان جُد أبـــداً حسّاً ومعنـــىً وغضّ الطرفَ إن عثراً

فمن الآداب التخلّي عن حظوظ النفس وكسر شهوتها وقتل رغبة الظهور وقصّ جناح التميّز، ومن هنا يتجلّى لنا منهج الأولياء العارفين في تربية النفوس والتركيز على ذمّها ولومها وكبح جموحها بشتى الطرق والوسائل، فلا يرى لنفسه فضلا ولا هو للتقديم أهلا.

ومن وسائل التربية الروحيّة الاعترافُ بالخطأ وغلبةُ النفس بالمبادرة إلى الاعتذار وطلب الصفح، وبالمقابل بذل الخير والصفح عن المسيء خاصّة إذا كان من الإخوان، والإيثار الماديّ والمعنويّ والبذل اللامحدود للإخوان في سائر الأحوال، فصلاح العلاقة وكمال المعاملة مع الخلق «**تصير لك معراجاً تتوصل بها إلى معاملة رب السماء فتكون مقبولاً عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة وتشرق عليك أنوار الحقائق**» (ابن علّان، 1928: 40) وإذا تأمّلنا هذا الترتيب في بناء الروح واستقامة

النفس وجدناه مشروعاً كبيراً لبناء مجتمع وصلاح أمّة، قوّتها في قوّة العلاقات بين أفرادها وصلاحها في صفاء النوايا بين مكوّناتها.

1-3/ حب الشيخ والإخلاص له والتفاني في خدمته:

على السالك في طريق التربية الروحيّة أن يسلّم نفسه لشيخه ويهبه الروح يفتلها كيف شاء، فهو أدرى بأدوائها وأعرف بدوائها، وأن يجاهد نفسه في خدمته وملازمته في سائر أوقاته وأحواله:

وراقب الشيخَ في أحواله فعسى ... يرى عليك من استحســـــانه أثرا

وَقَدِّمِ الجـدَّ وانْهَضْ عند خدمته ... عساه يرضى وحاذر أن تكن ضجرا

ففي رضاهُ رضا الباري وطـاعته ... يرضى عليك وكـــن من تركها حذرا

من خلال هذا المقطع نقف على أمر بالغ الأهمّية،ركن من أركان التربية وعامل من أهم عوامل نجاحها، وقد ركّز عليه جميع أعلام التربية في كلّ أمّة، وهو تعظيم الشيخ والمربّي والتأدّب معه والأخذ من سمته وخلقه والغرف من أحواله قبل أقواله وإحسان الظنّ به والمبادرة إلى خدمته والقيام بشؤونه، وقد توارث الطلبة (وحبّ الشيخ به تُعان)، وما وصل من وصل وما علم من علم إلّا برضى شيخه وحبه ودعائه، وهاهنا نقف مع حال الطالب والأستاذ والمعلم والتلميذ والشيخ والمريد اليوم، حيث انهدم هذا الركن واندكّ هذا الأساس، فضاعت الأخلاق وخفتت الهمم وتلاشت هيبة العلم.

ومن أهم الإشارات التربويّة في هذا الباب داء الضجر الذي يعتري الطالب فيصرفه من علم إلى علم ويرميه من فن إلى فنّ فلا يحوز حتي مبادئ العلوم وأساسياتها حتى يتركها ضجراً ونصَبًا، وقد يعتري الطالب داء الضجر من مصاحبة الشيخ والأستاذ فيتكاسل في الحضور ويتقاصر في الخدمة، وهي كلّها عناوين حرمان وطرق خذلان.

لا يمكن الإحاطة بجميع الأسرار والمعاني والأنوار المنطوية في ثنايا هذه القصيدة المباركة، وإنّما أردنا أن نبتدئ بها تبرّكا بمقامها ومقام صاحبها الذي يعدّ ركناً من أركان الطريق وقدوة لمن جاء بعده من أهل التحقيق.

2/ المجاهدات والمثبّتات في قصيدة (الياقوتة):

إذا انتقلنا إلى القصيدة الثانية (**الياقوتة أو الخمرة**) ـ وهي طويلة النفس مقارنة بسابقتها ــ نجد سيدي عبد القادر بن محمّد يسهب في ذكر صفات القوم وشروطهم ومنازلهم، ولا يمكن الإحاطة بجميع ما فيها من الأبعاد التربويّة والقيم الروحيّة، سيما وأنّ الشيخ قد أحاط بكلّ صغيرة وكبيرة، من الاستعدادات الروحيّة إلى التحلّي بالأخلاق الكريمة والخصال النبيلة إلى المجاهدات التي يخوضها من ترسّخت فيه تلك الأخلاق وثبتت فيه تلك الخصال، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الشيخ قد صرّح بأنّ هذه القصيدة هي فتح من الله وحال من الأحوال :

2-1/ بداية الطّريق وشروطها:

أوّل منازل الطّريق التّوبة وهي«**الرجوع عن متابعة النفس، وأصلها وقوع بريد الحقّ في القلب، ومراعاة الروح ما فات عنها من عبوديّة الخالق**»(الشيرازي، 2017: 71) المرحلة التي تلي الغفلة، بل هي التّنبّه من الغفلة، والغفلة سهم يرمي جميع القلوب إلّا من عصمه الله، وقد تطول وقد تقصر، وضد الغفلة اليقظة، وهي لحظة النور الذي يقذف في القلب فيرد صاحبه إلى

مولاه ويطرحه في رحابه، لتتلقاه أيدي رجال الله لتثبّته وترشده وتدلّه، فتنير طريقه وتبصّره بما يطهّر روحه ويرفع همّته، لتتعلّق بمعالي الأمور وتسير في ركب السائرين إلى مولاهم.

ثمّ النّصيحة لله والرّسول وعامّة المؤمنين، وبعد ذلك تطييب اللّقمة وتعظيم حرمات الله وشكر نعمه، مع التّشمير والسّعي والاجتهاد في الطّاعة.

بدايتها للغـــافلين بتـــوبة وأشراطـــها محصورة بالتثبّتِ
ونصح لديـن الله ثـــمّ رسوله وخـــاصّته والمؤمنـــين بجملةِ
وتطييب لقمة وتعظيـم حرمة وشكـــر لنعمة ورفـع لهمّةِ

والملاحظ لهذا المقطع يرى ما فيه من تحريك لحاسّة القيم الأخلاقية وربطها بعالم المثل، وحثّها على علوِّ الهمّة، وعلوُّ الهمّة في مجمله تعليقُ القلب بالمعالي وترويضُ النفس على الصبر على المشاق والمجاهدات ومنافسة الصالحين في صلاحهم والذاكرين في ذكرهم، يقول في هذا رضي الله عنه في أوّل الياقوتة:

ولما رأيت القـوم جدّوا في سيرهم إلى المقعد الأسمى بصدق العزيمةِ
جرت للتأسّي نفسي ثمّ تعلّقـت بأذيـال أربـاب النفوس الأبيّـةِ

2-2/ قـــــواعد الطّريـــــق:

القواعد أصعب من الشّروط؛ فهي على كثرتها لا يقدر عليها إلاّ أصحاب الهمم العالية، فالشّوق والمحبّة يورثان اليقين ويشحذان الهمم للإقبال على الله، وممّا يركّز عليه القوم ويكاد يكون لبّ الطّريق: كفّ الأذى والصّبر عليه والتّسليم لأقدار الله حلوها ومرّها، يصحب كلّ هذا زهد في الفانية بصوم نهارها وسهر ليلها مع الانقطاع عن الخلق بقلب حزين وخاطر منكسر يترجمه دمع دائم وشوق عارم وجسد قائم.

قواعدها شـــوق وعين يقينها محبّة جـــــدّ السّير دأباً لحضرة
وكفّ الأذى وحـــمله وتصـبّر ولا تهمل الرّضى بأدهى المصيبة
وزهد وتسليـــم وعـــفو وعفّة وتفويض أمـــر والشّهـــود بمنّة
وجدّ قويّ واجتهـــــاد موافق وصـوم وسهر ثـمّ صمت وعزلة
وحزن ودمـــع ساكب ثمّ لوعة وشغف قلـــوب الـواهين بزفرة

2-3/ إشراق السبيل ومواهب الجليل:

يشرق القلب وتتنور الطريق بالقرب من الله، وكلّ ينال من القرب على قدر ما كان عليه من الالتزام بالقواعد ومكابدة المجاهدات والتعلّق بهذا العطاء الموفور المعدّ لأصحاب النفوس الأبيّة ـ كما قدّم في أوّل القصيدة ـ وهم الذين تعلّقوا بالمعالي وتنزّهوا عن السفاسف.

نهـــــايتها شـــــمّ وذوق شرابها به ريّ خمـــــــر ثمّ ســـكـر بغيبة
فأمطـــــارها فـــــكر وذكر وعبرة ومحـــــو ذواتهم للذّات الـــعظيمة
زمن بعد غيم جـــــاء صحو سمائها بإشـراق شمس بالمعـــــارف حفّت

كيف لمن تعلّق بهذا العطاء الذي لا يوصف ألا يكون ذا نفس أبيّة وروح قويّة، إنّ ممّا بيّنه كثير من أرباب التربيّة وأعلام السلوك تلك النهايات المشرقة المقدّسة بجمال الوصول وجلال الشهود وهيبة القرب في حضرة الله ورسوله.

3/ ثنائية الهمّة وصدق التوجه في لامية العلاوي:

أمّا إذا تطرّقنا إلى النموذج الآخر، وهو لسيدي أحمد العلاوي، وهو مؤسّس الطريقة العلاويّة، فإنّنا نجد أنفسنا في فيض من الحب والأنس في مشاهد قدسيّة عجيبة، مع وصف بديع لهذه المشاهد، التي يتّفق فيها مع سيدي الشيخ في أنّها كرامة لمن لزم الاستقامة وصبر على كثرة المجاهدات، فمن صبر على **المجاهدات** نال **المشاهدات**، وانظر إلى عجيب التركيب اللغوي؛ فالفرق بين الكلمتين حرف واحد: **جيم** الشِدّة والجهر وحبس النفس و**شين** التفشي والهمس والرخاوة، فمن صبر على الشدائد وحبس النفس عن الحرام والمكروه والمباح انفتحت له أبواب الكرامات وتجلّت له الموجودات وتراءت له الأكوان، يقول الحبيب الحبشيّ:

وفك القيد من بعد امتحاني وأتحفنـــي بأنـــــواع الكرامة

نظم العلاويّ قصيدته في لامية تزيد عن المئتي بيت تدور كلّها في وصف حال القرب والتجلّي الذين نالهما بإخلاص عبوديته لله وكمال محبّته لنبيّه صلى الله عليه وسلم، والتأدّب مع الخلق حياً وجمادا ناطقاً وبهماً، لقد وصف العلاويّ حالاً من القرب قلّما نجدها في نصّ من النصوص، وإن تخلّل النصّ كثيرٌ من الاضطرابات في الوزن العروضيّ فإنّ حال النشوة والغبطة بالوصال والنوال أضفت على النصّ شكلاً آخر من أشكال الموسيقى النورانية والروحيّة.

ولسنا هنا بصدد التفصيل الدقيق في هذه المشاهدات والكمالات التي هي نهايات في طريق القوم، وإنّما نحن بصدد الموصلات لهذا الوصل والكمال، وقد سبق أن ذكرنا أن ذِكْرَ مثل هذه الهِبات والمنح والعطايا غير المحدودة ليس من باب التفاخر ولا كشف الأسرار، وإنّما هو دافع لرفع الهمم وبعث اليقين في النفوس لتعرف لذّة الوصول وتدرك هيبة المثول.

تتميّز لامية سيدي العلاوي بأنّها شملت وسائل التربية الروحيّة للمتعلّم والمعلم، للسالك والمربي، والسبب في ذلك ما انتشر في زمانه من فوضى الولاية وحمّى المشيخة دون علم ولا بصر ولا ورع ولا معرفة بالله وسوله.

3-1/ همّة السالك في زمن المهالك:

ومن جملة ما ذكره من المجاهدات المربّية للروح علوّ الهمّة ــ كما هو دأب الصالحين في كلّ زمان ومكان ــ وتحديد الطريق ومعرفة من المقصود ومن هو المسار إليه:

دعانا داعِي الله قبـــلَ وجـــودنا ولمّا كان الوجـــود سمعنا لهُ قولا

...فشمّر عن ساق الجدّ وانهض لأمره وخذ عنه علوما رخيصة وقد تغلا

فالهمّة هي الشرط الدائم والوصف القائم في السائر إلى الله، لأنّ الداعي الله ونقطة الوصول الله، همّة في الصبر على المكابدة والامتثال لأنّ طريق الوصول طويل وموعد الفتح غيبٌ، ومحظورات الطريق ومأمورات السلوك تحتاج إلى نفس قويّة وصبر طويل:

له همّة تسمـــو على كلّ همّة فلا شـــيء يمنعه والوعر يرى سهلا

ولا له وطـــر من دون مرامه فلا يهفو لأهـــل كما لا يرى عذلا

إنّ الطريق قد يقتضي ترك المباحاتِ والأنسِ بالأهل والركونِ إلى الولد، وهاهنا نقف وقفة مهمّة مع هذا الحاجز الذي يقف في وجه العابد والعالم، ولطالما حذّر منه أرباب السلوك والعلماء العاملون، فهو أعظم ما يوهن العزم ويهدّ الهمّة ويضعف القوّة، فالله يريد عبدا منقطعاً إليه مقبلاً عليه.

3-2/ شيخ الرحمان وشيخ الشيطان:

وممّا تنبغي الإشارة إليه أنّ الشيخ العلاويّ من الأمور المهمّة التفاته إلى بعض الشيوخ لبيان الشيخ الحقيقيّ الموصل إلى الله، وقد أخذ هذا الأمر حيّزاً واسعا من لاميّته، لما انتشر في زمانه من ينبري للمشيخة ومن يدّعي الولاية والرياسة دون علم ولا ورع ولا معرفة بالله تعالى، ويطلق العنان في وصف الفرق بين الشيخ الدال على الله العارف به، هذا الشيخ الرحمة على المريدين والناس أجمعين، الشيخ الذي ينشره نوره على كلّ من قصده، الشيخ الذي كشفت له الأسرار ورُفعت عنه الأستار:

فلا شيخَ إلّا من يجـــــود بسـرّه حريص على المريـد من نفسه أولى
ويرفع عنه حجبا كـــــانت لقلبه منيعة عن الوصـول للمقام الأعلى
ويدخـــل حضرة الله من بعد فصله ويرى ظهـــــور الحق أينما تولى
ويفنى عن العـــــالم طراً بأسره فلا قاصرات الطرف يهوى ولا خلّا

هذه المقامات العالية التي نالها الشيخ بالمجاهدات ووصلها بسلاسل الامتحانات هي التي تبوّؤه لأن يكون نوراً يضيء ودليلاً يهدي، كيف لا وقد بلغ منزلة التلقي المباشر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أخذ عن رسـول الله علماً كـفى به أنّه علم البـاطن في القلب تدلّى
علمٌ كان مكتومـا عن الخلق جملة وسرٌّ كان مصـوناً باللّفظ لا يتلى

هذا الوهب المحمّدي والعطاء الإلهي الذي ناله الأصفياء وكبار الأولياء، إنّه العلم اللّدنيّ الذي فكّ مغاليق الكون وكشف أسرار النفس، وهو العلم الذي من حازه حقّ له أن يكون مربّياً، لأنّ الواقع يثبت أنّ كثيراً ممن نالوا علوم الشريعة ولم يذوقوا طعم الحقيقة كانوا وبالا على الناس وعلى المجتمعات؛ لأنّهم علماء بلا رحمة ودعاة بلا انكسار، فالعلم اللدني يغوص في تخوم النفس ويسري إلى أغوار الروح، فيعرف عللها ويكشف عيوبها، وهي نظرة الشيخ العارف للسالك الصادق؛ نظرة تتخطّى حدود البدن إلى سويداء القلب فتنقله من حال إلى حال. ويستمر سيدي العلاويّ في وصف الشيوخ الربّانيين والأولياء الحقيقيّين وما نالوا من كرامة وفتح وكشف كونيّ، وهذه الأسرار التي كشفها ما هي إلّا زجر للمتصدّرين والمدّعين لمثل هذه الأحوال.

ثمّ ينتقل ليصف حال شيوخ الشيطان الذين اقتحموا منزلة التربية والنصيحة والسلوك دون برهان ولا نور، فهم أخطر على الناس من الشيطان نفسه:

كبر مقـتُ الإله يا خيبة الـــــذي جعـل زخرف القول يستبدلُ الفعلا
وهـــــل ينفع التشديق بالقول والثنا وهل ينفع التزويـــق من شفا العلّا
... فإن لفّقت الأقـــوال تحكي كقولهم فهذا شهد الزنبور أين عسل النحلا

فعلامة الادّعاء في نظره زخرف القول والتشدّق في الكلام واختيار المعجم الذي يخطف عقول العامّة ويلبّس على الأمّيين، إنّه معجم مزوّق وكلام منمّق لا أثر له على النفوس ولا سلطان له على القلوب. وهنا يشرع العلاويّ الذي أوتي زمام التربيّة وتربّع على عرش الولاية وذاق ألوان الوصل وانكشفت له أسرار الوجود وخامر هيبة الشهود، يشرع في بث القيم والفضائل

لهؤلاء المدّعين ويسلك سبيل تربية الشيوخ بعد أن أنهى تربية المريدين وهيّأ قلوب السالكين، فينصحهم بضرورة البحث عن شيخ صادق ووليّ عارف يعيدهم إلى حضرة الله بعد أن طردوا منها، ويكشف لهم خسة النفس بعد أن أطاعوها وعبدوها وعظّموها.

إن هذا المقطع الذي اقتطعناه من باب طويل يبرز حالة اجتماعية خطيرة وظاهرة دينيّة دخيلة في وقت الشيخ رحمه الله ولازالت موجودة إلى اليوم، إنّها ظاهرة التكسب بالدين والتقوت بالتصوفّ والتسوّل بالمشيخة لأكل أموال الناس بالباطل وتزعّم الأعراش بالبهتان والدّجل والقول المزخرف المسجوع، زهي ظاهرة دمّرت المجتمعات وحجرت على عقول الناس وأساءت إلى الطريق القويم وصرفت الناس عن النهج السليم، لقد حارب الشيخ العلاويّ وغيره من شيوخ التربيّة هؤلاء الدّخلاء على الطريق وبيّنوا للناس زيفهم من خلال البذل الذي لا حدّ له والنصح الذي لا عدّ له والبرهان الذي شكّ فيه، فأظهروا للناس شيخ الرحمان الذي يعطي ولا يأخذ ويجوع ليأكل الناس ويعرى ليكسو الزائرين، فيحمل همّهم ويسمع شكواهم ويقضي حوائجهم.

إنّ لامية الشيخ أحمد العلاوي رضي الله عنه تعتبر بحقّ قصيدة نورانية وقطعة ربّانية، بالنظر إلى الفضاء الغيبيّ الذي انطلقت منه ودعت إليه ووصفته وصف المشاهد (وليس من رأى كمن سمع)، وهي تستحقّ دراسة عرفانية خاصّة تكشف سرّها وتظهر أهمّيتها في تربية النفوس وترسيخ الفضائل، سيما وأنّها تركّز على قطبي العملية التربوية والسلوكيّة، المعلم

خاتمة

إنّ المتأمّل في النصوص السابقة والتي اخترناها بعناية يدرك أنّ شيوخ الزوايا وأرباب الطريق قد ركّزوا على بناء الرّوح وإصلاح الفرد، فكثير منهم لم يؤلفوا كتاباً واحداً وإنّما ألفوا رجالاً كاملين في أرواحهم مستقيمين في أخلاقهم، ولعلّ ما يمكن الإشارة إليه أنّ شيوخ التربية كان هدفهم شاملا، فهم يسعون لبناء مجتمع متكامل عن طريق بناء فرد صالح.

- يمثل شعر الأولياء نموذجا أدبيّا فريدا ولونا شعريا مقدّساً، من حيث مصادر صوره التي تُستمدّ من تجلّيات ومشاهدات ترتفع عن عالم المحسوس والمشاهد إلى الحضرة الربانية والتجليات الكونيّة، كما تجدر الإشارة إلى الحقل الدلالي الفريدوالمشهد الشعريّ المقدّس، وهذا ممّا ينبغي أن يُلتفت إليه التفاتة جادّة ببحوث وندوات
- كثير من قصائد الأولياء عبارة عن أحوال ومواهب قدسيّة وواردات ربانيّة، وقد حفظ التاريخ لنا كثيراً من القصائد التي تعتبر من عيون الشعر الصوفيّ لأولياء ليسوا من أهل العروض ولا النحو ولا البلاغة.
- من أهمّ مبادئ التربية الصوفيّة محاسبة النفس وتحقيق لحظة اليقظة والانتباه عن حال الغفلة وزمن التيه.
- وجوب الإسراع إلى صحبة شيخ عارف صادق صاحب سرّ ووليّ نور.
- التأدب مع الشيخ في الحضرة والغياب والسرّ والعلن.
- التأدّب مع الخلق جميعاً وبذل الخير لهم وتعظيم حرمة العلاقات الإنسانيّة.
- مجاهدة النفس بأنواع المجاهدات المعروفة كسراً لشوكتها وتحطيماً لسلطانها.
- السعي في طلب العلم بهمّة عالية وعزيمة قويّة.
- تعليق النفس بأمل الوصول وتحديثها بلحظة الفتوح والمشاهدات العظيمة والأسرار الربانية التي لا تحصى.

والحقّ أنّ هذه الأنوار الشعريّة ينبغي أن تفرد ببحوث خاصّةتحيط بكلّ جوانبها التربويّة خاصّة إذا ربطنا العلاقات بجديد علوم التربيّة والاجتماع والنفس وغيرها.

قائمة المراجع(طريقة APA–2019)

1/ الشيرازي، أبو محمّد روزبهان، (2017)، مشرب الأرواح، تحقيق، موفق فوزي الجبر،دمشق، دار نينوي.

1/ ابن علان. أحمد. (1928). *شرح قصيدتي ابن بنت الميلق، وما لذة العيش لأبي مدين*، مصر. مطبعة البابي الحلبي وأولاده.

2/ السكندري. ابن عطاء الله. (2012). *عنوان التوفيق في آداب الطريق*. فلسطين. واحة آل البيت.

3/ فاضلي. محمّد. (2023). *جامع شروح الحكم العطائية*. الجزائر. دار الوعي.

4/ العلاوي، أحمد بن مصطفى، (2009). *الديوان*. مصر. مطابع الشرطة.

5/ بن عبيد. ياسين. (2011. جانفي). في معرفيّة النصّ الصوفي. *مجلة الآداب والعلوم الاجتماعيّة*. المجلد 08. العدد 01. من ص184 إلى ص193.